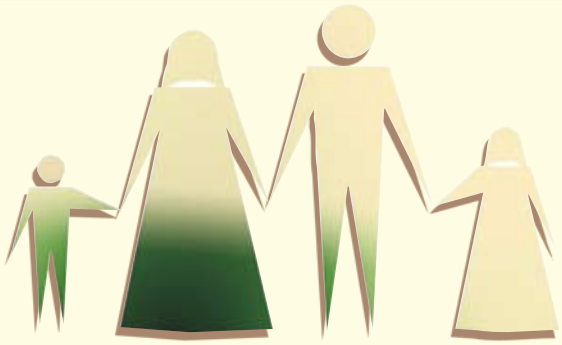

دور الأسرة المسلمة في الوقاية من الجريمة

د. حسن إبراهيم عبدالعال*

لا يستطيع أي باحث في مشكلة الجريمة أن يغفل دور الأسرة في مجال التعرف على أسباب الجنوح أو الجريمة، فعلى الرغم من تعدد مجالات دراسة الجريمة في علوم النفس والاجتماع والتربية والقانون والخدمة الاجتماعية وعلم الإجرام فإن الأسرة كانت في جميعها عاملاً مشتركاً يسترعي انتباه كل باحث في أسباب الجنوح أو في دراسة طبيعة السلوك الإجرامي بصفة عامة، وذلك لخطورة دورها في تكوين شخصية الفرد وتعيين أنماط سلوكه، وتستمد الأسرة أهميتها وخطورتها من أنها هي البيئة الاجتماعية الأولى، بل والوحيدة التي تستقبل الإنسان منذ ولادته، وتستمر معه مدة طويلة من حياته، وتشكل قدراته المختلفة واستعداداته المتباينة، وأيضاً تعاصر انتقاله من مرحلة إلى أخرى، بل لا يكاد يوجد نظام اجتماعي آخر يحدد مصير الجنس البشري كله كما تحدده الأسرة.

وإذا كان من الحقائق الثابتة الآن في علم النفس أن الصحة النفسية للفرد تعتمد على مدى إشباع حاجاته الأساسية، وأن كثيراً من مظاهر التكيف أوعدم التكيف التي تظهر في سلوك الأفراد وتحقق نجاحهم أو فشلهم يمكن إرجاعها إلى إشباع الحاجات الأساسية أو عدم إشباعها وإلى أساليب المعاملة التي تلقاها خلال مرحلة حياته الأولى فإنه «عن طريق العائلة يشبع الطفل جميع حاجاته الأساسية، وعن طريقها يشعر بأهمية وجوده وأنه عنصر غير مهمل في بيئته التي يوجد فيها، وعن طريقها يشبع حاجاته الاجتماعية النفسية إلى الأمن والحماية والرعاية والحب والعطف والقبول وإلى أن يكون له منزلة اجتماعية معينة.

وبعبارة أخرى فإن وجود الطفل في عائلة معينة هي السبيل إلى تكوين شعوره الأول بالانتماء إلى جماعة أولية أخرى.

ولا يكاد الإنسان يبالغ إذا قال إن أغلب الدراسات التي تناولت ظاهرة جنوح الأحداث وانزلاقهم إلى دركات الجريمة كانت تدور حول دور الأسرة وعلاقة الوالدين بالطفل وأثر ذلك في جناح الأحداث وتكاد تجمع هذه الدراسات على أن الأسرة المتصدعة ذات أثر خطير وهام في حدوث هذه الظاهرة. ولقد نظر إليها كثير من عامة الناس ورجال القضاء وضباط الاختبار القضائي وعلماء الاجتماع وعلماء النفس والأخصائيون الاجتماعيون على أنها من أهم عوامل إنتاج الأحداث الجانحين. سواء كانت تصدع الأسرة يعني التصدع المادي أو الاجتماعي وهي الأسرة التي يكون فيها الوالدان أو أحدهما مفقوداً أو متوفياً أو مطلقاً أو هاجراً، أو كان يعني التصدع النفسي وهي الأسرة التي يعيش فيها الوالدان معا ومع أطفالهما ولكن يسودها المنازعات المستمرة ويشيع فيها عدم احترام حقوق الآخرين، وهي التي يعيش فيها الطفل تحت ضغط مستمر.

إن هذه الأسرة المتصدعة تحرم الطفل من ضروريات حياته وتجعله يفتقر إلى الإشراف العائلي الدقيق المستمر وتجعله يحس بالجوع الدائم إلى الأمن والحب

والتقبل مما يفتح له الباب على مصراعيه إلى أن يسلك كل ماهو شاذ ومضاد للجماعة نتيجة إحساسه بالإهمال والحرمان.

ولقد اهتم الإسلام بالأسرة اهتماماً فاق كل حد ولا نستطيع في هذا المقام أن نتعرض تفصيلاً لنظام الأسرة كبيئة اجتماعية صالحة توفر للفرد كل مسببات النموالسوي وتشبع له كل حاجاته الأساسية والنفسية وتمده بمختلف الخبرات والمهارات اللازمة وتحيطه بجو اجتماعي يجعله يدخل حياته في المجتمع الكبير مزوداً بقدر كاف من الثقة بالنفس والقدرة على التعامل مع الآخرين.

والأسرة في الإسلام واسعة المؤدي فهي تشمل الزوجين والآباء والأولاد والإخوة وأولادهم والأعمام والأخوال وأولادهم وهكذا تشمل عموم النسب وحواشيه. أو هي بمعنى أخر الأسرة الكبيرة ولا شك أن دورها التربوي يفوق دور الأسرة الصغيرة. إنها المركز الثقافي لكافة نشاطات الفرد وأدواره الاجتماعية المتعددة. ودورها في إنماء خبرات الفرد وتشكيل شخصيته أعظم بكثير من دور الأسرة الصغيرة هذا بالإضافة إلى تمتعها بالاستقرار والثبات وتعدد وظائفها الدينية والاجتماعية والاقتصادية.

كما أنها في الإسلام من أهم المؤسسات التربوية وأقواها أثراً في حياة الأفراد وتأثيرها أصعب زوالا من غيرها من المؤسسات. ولقد مكنتها الأسس التي أقامها عليها الإسلام من القيام بدورها التربوي الذي تعدى نقل القيم والتراث الاجتماعي للأجيال الجديدة إلى كونها

الحصن المنيع ضد انحراف الأفراد وعصيان أوامر الله ونواهيه وارتكابهم للسلوك المخالف لقيم الجماعة ومبادئها.

ونستطيع أن نشير إلى الأسس التي قامت عليها الأسرة في الإسلام من غير أن نتعرض لتفاصيلها في ثلاثة أسس هي:

الأساس الأول: المودة والرحمة، وتبتدئ تلك المودة بين الزوجين، وتبقى الزوجية ما بقيت المودة فقد قال تعالى «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة «وقال تعالى في علاقة الزوجين: «هن لباس لكم وأنتم لباس لهن»

الأساس الثاني: العدالة وهي حق لكل من الزوجين على الآخر،وحق للزوجة على زوجها بشكل خاص حتى إنه قبل الزواج لايجوز له أن يتزوج إن تأكد أنه لا يستطيع العدل مع زوجته، والمنع ديني يخضع لسلطان التدين ولا يخضع لسلطان القضاء لأن أساس المنع هو خشية الظلم.

والأساس الثالث: هو التكافل الاجتماعي في داخل الأسرة وللتعرف على دور الأسرة المسلمة في الوقاية من الجريمة، أو بتعبير أعم في تشكيل شخصية الفرد يبدأ منذ ولادته ويستمر خلال عملية نموه ونضجه ليصبح كائناً اجتماعياً يعيش في جماعة ويسلك سلوكاً اجتماعياً مناسباً لكل موقف بحيث لا يخرج على قيم جماعته وعقيدتها وعاداتها وثقافتها، وهي ما تعرف بعملية التنشئة الاجتماعية. أو عملية التطبيع الاجتماعي فالتنشئة الاجتماعية هي حجر الأساس في بناء ما يعرف بالشخصية الإجرامية فقد يتعلم الطفل من خلال تنشئة اجتماعية خاطئة قيما ومفاهيم اجتماعية خاطئة كتلك التي تتصل بالشرف والأمانة والعفة والعدل والتعاون والولاء والخلق القويم والنزاهة والصدق إلى غير ذلك من المعايير الأخرى وهو هنا لا يشعر بالندم عند ارتكابه سلوكاً يعتبره القانون جنوحاً أو جريمة، وذلك لأنه يقوم على أرضية خاطئة تبرره.

وهناك من يرى أن السلوك الإجرامي هو حصيلة تنشئة اجتماعية ناقصة غير كاملة فالفرد هنا لا يشعر بأهمية القيم الاجتماعية التي تعيش من حوله ولذلك فهو يخالفها لجهل أهميتها وعدم إدراك

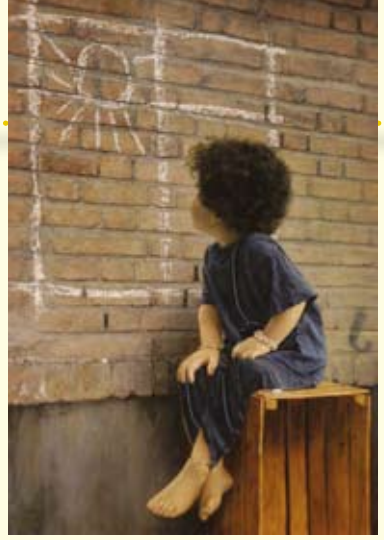

أهدافها وغاياتها وهناك من يرى. وغالبيتهم من أنصار مدرسة طب الأمراض العقلية ـ أن السلوك الإجرامي هو سوء توافق في الشخصية وهذا يرجع أيضاً إلى تنشئة اجتماعية خاطئة أو ناقصة، وفي هذه الحالة تكون الجريمة مظهرا من مظاهر عدم التوافق النفسي أو حصيلة اضطرابات نفسية عصابية أو عقلية ذهانية. ويمكن تعريف عملية التنشئة الاجتماعية بأنها عملية تعليم وتعلم وتربية،وتقوم على التفاعل الاجتماعي وتهدف إلى اكتساب الفرد سلوكاً ومعايير واتجاهات مناسبة لأدوار اجتماعية معينة تمكنه من الاندماج في جماعته والتوافق الاجتماعي معها، وتكسبه الطابع الاجتماعي وتسير له الحياة في وسط الجماعة، وهي عملية تشكيل السلوك الاجتماعي للفرد وعملية تنمية ثقافة المجتمع في بناء الشخصية. أو هي بإيجاز العملية التي بواسطتها يتعلم الفرد طرق مجتمع ما أو جماعة اجتماعية حتى يتمكن من العيش في ذلك المجتمع أو في تلك الجماعة.

إن ذلك الطفل الرضيع الذي يلقم ثدي أمه ناعما راضيا تحركه حاجة عضوية بيولوجية واحدة محددة متعجلة هو الذي تلقاه بعد عدد غير قليل من السنين لا يتناول طعامه إلا وفق آداب محدده وسلوك معين وفي ظروف يراعي فيها جانب كفاية الطعام، وجودة الطهي، وطيب المذاق، وجمال التنظيم وأنس الصحبة إنه لشوط بعيد حقاً بين الطورين، وإنه لآية من آيات الله الكبرى أن هيأ لهذا الإنسان بما ركب في بنيته واستودع في فطرته وبما ألهم وعلم من قدرة على التنظيم والابتكار الاجتماعي أن ينتقل من ذلك الطور البسيط إلى طور أكثر رقياً وأكثر تعقيداً. تلك هي عملية التنشئة الاجتماعي أو التطبيع الاجتماعي وكما يتعلم الفرد سلوك الجماعة وطرائقها التي عن طريقها يتعامل معها تعاملاً يتسم بالتوفيق والنجاح. فيمكن أيضاً أن يتعلم السلوك الإجرامي من خلال اتصاله بجماعة تقترف هذا السلوك ومن خلال تكوين علاقات معهم واستيعابه لأنماط سلوكهم وقيمهم ومشاعرهم. ولذا فإن عملية التنشئة الاجتماعية لها صلة كبيرة بتكوين السلوك الإجرامي وذلك بتشكيل شخصية الطفل بحيث تعده ليكون مجرماً يقترف الجريمة في مستقبل أيامه.

وتقوم الأسرة المسلمة باعتبارها الحضن الاجتماعي الذي تنمو فيه بذور الشخصية بعملية التنشئة الاجتماعية الصحيحة عن طريق:

أ ـ توفير الجو الاجتماعي الصالح للتطبيع الاجتماعي

حيث إن الأسرة تمثل وحدة اجتماعية تقوم فيها أنماط من التفاعلات الاجتماعية المعقدة. ولكل فرد فيها دور يحكمه مركزه أو مكانته الاجتماعية يشارك عن طريقه في تنشئة الطفل وتطبيعه اجتماعياً وتتكامل هذه الأدوار الاجتماعية لتهيئ بذلك كل أسباب النمو وتيسره ومن أهم هذا الأدوار وأعظمها أثراً.

دور الأم في عملية التنشئة الاجتماعية

اهتم الإسلام بدور الأم وأكد مركزها الجوهري في عملية لتطبيع الاجتماعي بالنسبة للطفل وبخاصة في سنوات حياته الأولى فهي الكافلة الأولى لكل رغباته والمعين الأول ما قد يحس به من حاجة، والأم من وجهة نظر التربية الإسلامية صاحبة دور رئيس في إشباع حاجات الطفل الأساسية. وعن طريق هذه الإشباع يحصل الطفل على حاجاته إلى الأمن الذي هو درع الأمان من انحرافه أو جناحه.

إن الأم هي مصدر غذاء الطفل عن طريق الرضاعة. وتكاد تكون الرضاعة أهم ما يشغل الرضيع وبخاصة في حياته الأولى والطفل يتحرك بطبعه إلى اللبن الذي يلتمسه من الثدى فإن أنت وضعت حلمة الثدى في فم المولود وجدته يعصرها ويستعين عليها بشفتيه، ثم يقلب لسانه ويجذبه فيندفع اللبن إلى حلقة كأنه قد تعلم ذلك وتفنن فيه منذ دهر طويل.

ويؤكد الإسلام في صدد إشباع حاجات الطفل الأساسية على قيمة الرضاعة الطبيعية ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾. ومع أن الآية الكريمة خبرية اللفظ فهي إنشائية في المعنى إذ هي توجيه من الله سبحانه للأمهات لكي يقمن بإرضاع أطفالهن لعلمه سبحانه بمدى الفائدة التي تعود على الطفل والأم معا نتيجة للإرضاع وقد رأى المربون المسلمون ضرورة « أن يرضع الطفل ما أمكن من لبن أمه فإنه أشبه الأغذية بجوهر ما سلف من غذائه وهو في الرحم. وهو أفضل الألبان إن لم تكن الأم عليلة لأن لبن الأم غذاء قد اعتاده وبه جبل ونشأ. فإلى جانب الفائدة الصحية من الرضاعة الطبيعية فإن الطفل يستقي من ثدي أمه مع اللبن ما يحتاج إليه من الأمن الانفعالي من نشاط الفم في الامتصاص ومن الاتصال الوثيق بالأم. كما تقوى ثقته بنفسه من خلال

شـعوره الدائم بدفء احتضانها له والرضاعة الطبيعة تسـاعد على تكوين علاقة وثيقة بين الطفل وأمه، يسـهل من خلالها تعليمه أنماط السـلوك المختلفة وإكسـاب ما يراد له اكتسـابه من القيم والضوابط والآداب والأخلاق فحين تقوم الأم بإرضاع طفلها وتضمه إلى صدرها في حنان وبحسب مبادئ التعلم وعلى أساسها يمكن التنبؤ بأن الطفل يسـتطيع تعلم عدد من الاسـتجابات الجديدة في موقف الإرضاع من ثدى أمه، ففي البدء يشعر الطفل بوخز الجوع فيستجيب لهذه الحاجة بالبـكاء والصراخ وحينئذ تمسـك الأم بطفلها وتضمه إلى صدرها ثم تلقمه الثدى ليسـد حاجته إلى الطعام، وهكذا يكون الطفل محاطاً بكل المنبهـات أو المثيرات البصرية والشـمية والسـمعية التي هي جزء لا ينفصل عن موقف الرضاعة من ثدى الأم.

وقوانـين التعلم تنص على أن المثير أو المنبـه الجديد الذي يقترن اقترانـاً زمنياً بالرضاعة ثدى الأم) ويصبح هو نفسـه ذا قيمة مهمة. ومن هنا يصبح تأثيرها في تعليم الطفل فعالاً وفي ضوء ذلك نستطيع أن نفهم حرص الإسـلام على أن تقوم الأم نفسها بإرضاع طفلها مالم يمنعهـا من ذلك مانع، حتى رأى بعض الفقهاء إجبار الأم على إرضاع طفلها مطلقاً لتحقيق مصلحته في ذلك.

ومما يسـاعد على تكوين العلاقة بين الأم وطفلها مداعبته وإشباع حاجتـه عند النـوم باعتبارها من الحاجات الجوهريـة اللازمة لنمو الطفل. وللمربين المسـلمين فيما يتعلق بإشباع هذه الحاجة توجيهات رائعـة منهـا أن تعنى الأم بمضجعـه فتضجعه في فراشـة في المهد مستويا معتدلاً، ولا يكون لينا جداً لئلا ينقلب أو يلتوى عنقه، ويجعل رأسه إذا نوم أعلى جميع بدنه. أما مكان النوم فيجب أن يكون «معتدل الهواء ليس ببارد ولا حار. وقد راعى المربون المسـلمون العوامل التي تؤثر في خاصية النوم وكميته من ذلك أن الطفل إذا نام عقب الرضاع يجب أن لا يكون تحريك شـديد للمهـد يخضخض اللبن في معدته بل يرجـع برفق وقد وصف الجاحظ الأم الجاهلـة بأنها هي التي تحرك طفلها فـي المهد حركة تورثة الدوارأو تنومه بـأن تضرب بيدها على جنبـه، ومتى نـام الصبي وتلك الفزعة أو اللوعـة أو المكروه قائم في جوفه، ولم يعلل ببعض ما يلهيه ويضحكه ويسـره حتى يكون نومه على سـرور فيسـر فيه. ويعمل في طباعة ولا يكون نومه على فزع أوغيظ أو غم كما يتعلق بإشباع حاجة لطفل إلى النوم ما رآه ابن قيم من صون الطفل «عن كل أمر يفزعه من الأصوات الشـديدة والحركات المزعجـة فإذا عـرض لمعارض من ذلـك، فينبغي المبـادرة إلى تلافيه بضمه وإيناسـه بما ينسـيه إياه وأن يلقم ثديه في الحال، ويسـارع إلى إرضاعه ليزول عنه حفظ ذلك المزعج.. ويستعمل تمهيده بالحركة اللطيفـة إلى أن ينام فينسـى ذلك، ولا يهمل هـذا الأمر فإن في إهماله إسكان الفزع والروع في قلبه فينشأ على ذلك ويعسر زواله ويتعذر.

وإلـى غيـر ذلك مما يطول شـرحه من دور الأم في إشـباع حاجة طفلهـا إلى تنظيم درجـة الحرارة، أو الحاجة إلـى الإخراج وغيرهما من الحاجات الأساسـية، والطفل مع كل إشـباع لحاجـة من حاجاته يشـعر بالأمـن ويسـتمر نموه على نحو سـليم لا يتعرض فيه لأي نـوع مـن الاضطرابـات أو التوتـرات أو القلـق. وقد عرفت هـذه المرحلـة من مراحـل حياة الطفـل بمراحـل الاعتمـاد على الغير. إذ يسـتمر الطفل في كنف أمه يأخذ ما يحتاجه لنموه حتى يبدأ في إدراك وجود أبيه. ويبدأ الأب فـي القيام بدوره في عملية التنشـئة الاجتماعيـة ليشـبع بدوره كثيراً مـن حاجات الطفل ورغباته ويعلمـه كيف يتعامل مع غيره وفـق القواعد والأصول الاجتماعية السـليمة، كما يعلمه كثيراً مـن المعارف والعقائد والأفكار والآراء.

دور الأب في عملية التنشئة الاجتماعية

علـى الرغـم من أهميـة دور الأم في عملية التنشـئة الاجتماعية، فـإن لـلأب دوراً مباشـراً يؤديه بطريقة مباشـرة لتطبيـع الطفل، فالإسلام حين أو كل إلى الأم العناية بالطفل ورعايته وإشباع حاجاته الأساسية في سنوات حياته الأولى، فإنه عهد إلى الأب تأمين كل مامن شـأنه أن يسـاعد الأم على أداء وظيفتها قال تعالـى ﴿وعلى المولود لـه رزقهن وكسـوتهن بالمعروف، لا تكلف نفس إلا وسـعها، لا تضار والدة بولدها﴾، فالعناية بالأم من وجهة نظر التربية الإسلامية عناية بالطفل فـي نفس الوقت. على أن دور الأب ليـس قاصراً على الانفاق والكسوة وتوفير أسباب المعيشة الأخرى، وإنما يتعدى ذلك إلى تهيئة الجو النفسي الملائم لكي تتفرغ الأم تفرغاً كاملاً لمهام الأمومة والتربية المبكـرة فيحيطها بجو من التعاطف والتعاون والأمن النفسـي والود والرحمـة حيث ينعكس ذلك علـى حياة الطفل الذي يشـتق أمنه من أمن أمه نفسـها. وقد ألمحنا من قبل إلى الجو الذي يسود العلاقات بين الزوجين في الأسرة المسلمة. وإذا كانت وظيفة الأسرة هي إعداد الطفل للعيـش في العالم الكبيـر، وإذا ما نظرنا إليها مـن وجهة النظر هذه فـإن الآباء هم من الكفلاء والأوصياء على الطفل، وهم مسـؤولون عن إعداده لحياة الكبار الراشـدين. وذلك بتدريبه وتعليمه حب الآخرين والتعـاون معهم وعدم الأنانية واحترام حقوق الآخرين وكيف يتلاءم معهم ومع غيره من أفراد الأسـرة من إخوة وأقارب. كما يساعده على تكوين بعض الاتجاهات وأهمها اتجاهاته نحو الوالدين وخاصة الأب بوصفه رمز السـلطة ويقول فلوجل في ذلـك أن هذه الاتجاهات التي يكونها الأطفال في صغرهم وما يصاحبها من شعور بالكراهية توجه في المستقبل نحو المجتمع بصفة عامة، كما أن الكثير من جرائم الأحداث وانحرافهـم يرجع في أصله إلى كراهية الأطفال للسـلطة. هذا علاوة

على ما يتعلمه الطفل من والده من اتجاهات نحو المجتمع الخارجي وأفراده. ولقد أدركت التربية الإسلامية دورالأب في تأديب الطفل وإكسابه الآداب المرغوبة. فقد روى البخاري عن ابن أوس أنه سمع أباه يقول «كانوا يقولون الصلاح من الله والأدب من الآباء» ويقوم الأب بدوره في عملية التطبيع الاجتماعي بأساليب نفسيه اجتماعية بقصد إكساب الطفل مايرغب من ألوان السلوك أو تعديل سلوك موجود عنده. أو اقتلاع سلوك غيرمرغوب فيه، ومن هذه الأساليب التي يمارسها الأب أثناء تطبيعه الاجتماعي للطفل.

١ـ الأوامر والنواهي

إذ يقوم الأب في كل مناسبة بتنبيه ولده إلى ما يجب عليه فعله وإلي ما يجب عليه تركه واجتنابه، والأوامر والنواهي دعامة أساسية في التجارب التعليمية لكل طفل، كما أنها دعامة أساسية لكل عقيدة دينية. يقول عليه الصلاة والسلام «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين وأضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين وفرقوا بينهم في المضاجع».

٢ـ تقديم القدوة الطيبة والنموذج المرغوب للسلوك الاجتماعي

والإسلام يهتم بالقدوة، ويعتبرها من أعظم وسائل التربية وأكثرها فعالية «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة» والطفل لا بد له من قدوة في والديه ومعلميه والمحيطين به لكي يتشرب مبادئ الإسلام وقيمه التي تحميه من الانزلاق إلى مهاوى الجريمة. إن القدوة هي التي تجعل الصور الذهنية للمبادئ والمثل معروضة عرضاً واقعياً أمام الأعين. والإسلام يلزم الأب أن يكون صورة طيبة لما يأمر به ولده من آداب ويدعوه إليه من خلق ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون﴾ وما أعظم قول عمر بن الخطاب «كفى بالمرء غيا أن يعيب شيئاً ثم يأتي مثله». والأطفال يميلون إلى تقليد والديهم وتمثل سلوكهم «لأن الناس لديهم حاجة نفسية إلى أن يشبهوا الأشخاص الذين يحبونهم ويقدرونهم وأن هذه الحاجة تنشأ في بادئ الأمر من خلال تقليد الأطفال لوالديهم. والأطفال دائماً يحاولون أن يكونوا كالأشخاص الذين يحبونهم ويعجبون بهم، فمن الأشياء المألوفة لدينا أن ترى طفلاً يتخذ مظهر أبيه وطفلة تقلد صوت أمها حين تؤنب أخاها الصغير والأطفال لا يقلدون السلوك الخارجي لوالديهم فحسب، أو يتخذون من آبائهم المجيدين مثلاً عليا فحسب، بل يمتصون سماتهم ومستويات سلوكهم أيضا. وقد يكون من السهل أن يضع الأب لأبنائه منهجاً تربويا يتضمن قيما ومبادئ ومثلاً عظيمة. لكن هذ المنهج يفقد قيمته مالم يتحول إلي حقيقة واقعية مشاهدة وما لم يتحول إلى بشر يترجم بسلوكه وتصرفاته ومشاعره وأفكاره مبادئ المنهج ومعانيه عندئذ فقط يتحول المنهج إلى حقيقة ويتحول إلى حركة. والقدوة تبني الطفل إن كانت خيرة صالحة وتهدمه إن كانت فاسدة شريرة والقرآن يؤكد على أهمية القدوة في تقرير مصير الإنسان حين يدعو إلى الاقتداء بنماذج الخير في رسل الله عليهم السلام «لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة». على أن الذي أكد عليه المربون المسلمون في سلوك الأب حين يعطي القدوة لأولاده أن لا يثير التناقض بين ما يأمر به أولاده وبين ما يأتيه من أعمال إن عليه أن يتجنب أن يقول مالا يفعل، وأن يأمر بما لا يأتمر وأن يسر غير مايظهر. ذلك أن أمره بما لا يأتمر مطروح، وإنكاره مالا ينكر على نفسه مستقبح، بل ربما كان ذلك سبباً لإغراء المأمور (من أولاده) بترك ما أمر به عناداً، وارتكاب مانهى عنه كياداً.

٣ـ الثواب والعقاب

الثواب والعقاب شكلان من أشكال الضبط الاجتماعي وهما يستخدمان على نطاق واسع في مجال الأسرة، وهما منوطان في أغلب الأمر بالأب باعتباره مركز السلطة والحقيقة أنه لكي يؤثر فرد على الآخرين فيجب أن يعتمد غالباً على قدرته على إثابتهم على صوابهم أوعقابهم على خطئهم ومن ثم فإن أحد أبعاد القوة الاجتماعي هو القدرة على إثابة وعقاب من يفترض أن توثر فيهم. وقد أقر رجال التربية المسلمون إثابة الطفل على كل سلوك حميد يأتيه، وتأييده عندما يتصرف وفق ماهو متوقع منه وذلك لأب الثواب يشجع الاستجابات المحببة للثواب ويعزز السلوك المطلوب.

أما العقوبة فقد شغلت جزءاً كبيراً من اهتمام المربين المسلمين. وقد بينوا أن العقاب يتفاوت أسلوبا ودرجة ونوعا باختلاف الأطفال وما بينهم من فروق فردية «فرب صبى يكفيه عبوسة وجهه عليه، وآخر لا يرتدع إلا بالكلام الغليظ والتهديد، وآخر لا ينزجر إلا بالضرب والإهانة كل على قدر حاله غير أن الذي تجدر الإشارة إليه هو نبذ المربين المسلمين للصرامة والقسوة من جانب الآباء في علاج أخطاء أبنائهم إذ قد تصبح هذه الصرامة وتلك القسوة أساساً لإكساب الطفل سوء الخلق وداعياً لانحرافه عن سواء السبيل، وقد عبر ابن خلدون عن ذلك أبلغ تعبير في قوله «من كان مرباه بالعسف والقهر.. سطا به القهر وضيق على النفس انبساطها، وذهب بنشاطها، ودعا إلى الكسل، وحمل على الكذب والخبث وهو التظاهر بغير مافي ضميره خوفاً من انبساط الأيدي بالقهر عليه وعلمه المكر والخديعة لذلك، وربما صارت له هذه عادة وخلقاً.

٤ـ الايحاء

لم تهمل التربية الإسلامية أثر الايحاء الذي يتلقاه الطفل من الوسط الذي يعيش فيه، وهو طريقة غير مباشرة لإكساب بالطفل السلوك المرغوب فيه: وقد استحب المربون المسلمون أن يصطحب الرجل ولده إلى المساجد لتنطبع في شعوره كل تفاصيل العبادات التي تؤدى في المساجد وتختلط اختلاطاً تاماً بوجود أناته ومثل ذلك أن «يحمل

الصبي على صحبة الأشراف والعلماء». ليتعلم ماهو متوقع من هؤلاء الأشراف والعلماء» كما يتعلم أنواعاً من المكانات الاجتماعية التي يشغلها أهل الشرف العلم علاوة على تأسيه بهم وإفادته من تعرضه لممارستهم وخبراتهم وتنمية ارتباط عاطفي بينه وبينهم.

٥ـ التوجيه والنصيحة المباشرة

قد يلجأ الأب في تطبيع ابنه اجتماعيا إلى نصحه وتوجيه سلوكه بطريقة مباشرة بغية تعويده العادات الحميدة أو تدريبه على مباشرة السلوك الفاضل، أو بقصد إبعاده عن ارتكاب غير المرغوب من السلوك. ولا أدل على استخدام هذا الأسلوب من أساليب تطبيع الطفل في التربية الإسلامية من توجيه لقمان لابنه ونصحه له فيما يحكيه القرآن الكريم ﴿يابني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم يابني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وإنه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور، ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور، واقصد في مشيك واغضض من صوتك أن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾. إن الأب المدرك لأبعاد عملية التنشئة الاجتماعية هو ذلك الذي يهيئ الظروف ويستغل المواقف لتوجيه ولده إلى جادة السبيل ذلك هو الجو الاجتماعي المناسب لنمو الطفل نموا صحيحاً بحيث يصبح قادراً على التفاعل الاجتماعي مع الآخرين.

ب ـ توفير الجو النفسي الصالح للتطبيع الاجتماعي

يراد بتوفير الجو النفسي إشباع حاجات الطفل النفسية فإن ذلك بمثابة الدرع الواقي من الانحراف إلى الجريمة، فالطفل الذي يعيش في جو انفعالي سليم متوازن يجد فيه إشباعاً لحاجاته الانفعالية والعاطفية واستقرارا نفسياً ييسر له حياته، ويسبغ عليها جوا من الأمن والطمأنينة يدفعه هذا كله إلى التمسك بأسرته وبهذه الحياة ما دام يشبع فيها حاجاته وتستقر فيها انفعالاته، أما الطفل الذي يعيش في جو انفعالي مضطرب سيء لا يجد فيه الاستقرار النفسي السليم الذي ييسر له حياته ويجعله دائم القلق والاضطراب يدفعه ذلك كله إلى الضيق بهذه الحياة ومحاولة الفرار منها إلى أي مكان آخر عله يجد فيه متنفسا عن ذلك الألم الذي يعانيه والقلق الذي يسيطر على شخصيته ويوجهها

بدرجة كبيرة.

إن الطفل المنحرف هو الطفل الذي لا يجد إشباعاً لحاجاته النفسية كالحاجة إلى ال أمن وإلى التقدير الاجتماعي وإلى التقبل وإلى الإنجاز وغيرها ولقد دلت دراسات أجريت على مجرمين أن كثيراً ممن عرفوا بأنهم جبابرة وطغاة كانوا غير ناضجين عاطفياً وغير مطمئنين في طفولتهم، وأن لهفتهم على الظهور بمظهر البطش والعدوان كانت تخفى عنهم وعن غيرهم رغبتهم الجارفة في ثقة الغير بهم ومعاونتهم لهم. وفي نظر بعض الباحثين توجد ثلاث حاجات أساسية وهي الحاجة للنمو والحاجة إلى أن يكون للفرد ميول والحاجة إلى أن يكون الفرد نفسه موضوع ميل أو حب من الآخرين، ويرى بعض الباحثين الآخرين أن الحاجات الأساسية اثنتان وهما الحاجة للأمن والحاجة للمخاطرة وهاتان النزعتان ظاهرتان في المجتمع، فالمجتمع يبدو كأن فيه قوة للمحافظة أو صون التقاليد وأخرى للتجديد والابتداع والمخاطرة، وهاتان القوتان تتنازعان المجتمعات والأفراد بشكل واضح وقد قدم «ماسلو» الحاجات النفسية في شكل هرم جعل قاعدته الحاجات الفسيولوجية يعلوها الحاجة إلى الأمن والطمأنينة ثم الحب ثم التقدير أو القيمة، ثم تحقيق الذات، وأخيراً الرغبة في المعرفة والفهم. وتشبع التربية الإسلامية حاجات الطفل النفسية إشباعاً متوازناً يضمن استمرار نموه في نواحيه الجسمية والعقلية والاجتماعية ويساعده على تكامل شخصيته واستقراره النفسي من الحاجات التي تحرص التربية الإسلامية على إشباعها للطفل.

الحاجة إلى الأمن

تعتبر أهم الحاجات الوجدانية التي يسعى الطفل إلى إشباعها والرغبة في الأمن رغبة أكيدة، ولا يتقدم طفل بسهولة في ميدان ما إلا إذا اطمأن شعر بالأمن ومن نموه إلا أحيط بالأمان، والحاجة إلى الأمن في الطفولة الأولى ترتبط بالحاجات الفسيولوجية، وأكد الإسلام على أهمية حنان الأم ومحبتها لإحسساس الطفل بالأمن وازدياد ثقته بها تلك الثقة التي يشتق منها ثقته في نفسه ثم في المجتمع بأسره، وقد أثنى النبيﷺ على نساء قريش بسبب حنانهن على أولادهن وثمة أمر هام تنبه إليه علماء المسلمين في إشباع حاجة الطفل إلى الأمن وهو أن يتم فطام الطفل على التدريج حتى لا تحدث مضاعافات انفعالية، فأم الطفل ـ فيما يرى ابن القيم ـ إذا أرادت فطامه أن تفطمه على التدريج ولا تفاجئة بالفطام وهلة واحدة بل تعوده أياه وتمرنه عليه لمضرة الانتقال عن الإلف والعادة مرة واحدة وذلك أمر هام جداً للصحة النفسية للطفل ذلك أن الفطام المفاجئ يمثل عملية حرمان قاسية لا يزال الرضيع أصغر من أن يتحملها، كما أن الفطام المفاجئ قد يكون عند الطفل بعض الميول العدوانية إزاء العالم الخارجي الذي يعتبر مسؤولاً في نظره عن حرمانه من صدر أمه. وترى التربية الإسلامية أن حرمان الطفل من أمه والتفريق بينهما في السنوات الأولى من حياته من العوامل التي تزلزل أمنه.

* باحث ـ القاهرة■